

مُتَبَرِّرُونَ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ

المحاضرة ٢: مارتين لوثر

أ.ر. سي. سرول

أَعْتَقِدُ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّرِيقِ إِثَارَةً لِدِرَاسَةِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ هِيَ بَرَكِيزِ انْتِبَاهِنَا عَلَى صَانِعِي هَذَا التَّارِيخِ. حِينَمَا نَتَأَمَّلُ الإِصْلَاحَ الْبُرُوتِسْتَانِيَّ وَالْأَهْمِيَّةَ الْمَرْكَزِيَّةَ لِعَقِيدَةِ التَّبَرُّرِ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ، سَيَحْطُرُ بِبَالِنَا فَوْرًا الدَّوْرَ الَّذِي قَامَ بِهِ الرَّاهِبُ الْأَوْعُسْطِينِيُّ مِنْ وَيْتِنْبِرْج، مَارْتِنُ لُوتِر. فَمَا أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ بِهِ مِنْ أَجْلِ مُقَدِّمَةٍ أَكْثَرَ عُمُقًا لِدِرَاسَتِنَا لِلْعَقِيدَةِ نَفْسِهَا، هُوَ النَّظَرُ فِي الإِطَارِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي أُثِيرَ الْجِدَالَ فِيهِ، وَالنَّظَرُ أَيْضًا، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، فِي شَخْصِ لُوتِرِ لِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ اشْتِرَاكِ لُوتِرِ، بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا، فِي الإِصْلَاحِ.

فَلُوتِرُ، بِحَسَبِ مُعْظَمِ الْمُؤَرِّخِينَ، وُلِدَ عَامَ ١٤٨٣. لَكِنْ مَا مِنْ أَحَدٍ يَعْلَمُ تَارِيخَ مِيلَادِهِ بِدِقَّةٍ. يَقُولُ الْبَعْضُ إِنَّهُ كَانَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ نُوفَمْبَرٍ، وَآخَرُونَ يَقُولُونَ فِي السَّابِعِ مِنْ دَيْسَمْبَرٍ. رَبَّمَا هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ لِهَذَا التَّارِيخِ سُمْعَةً سَيِّئَةً لَدَى الْأَجْيَالِ التَّالِيَةِ. وَقَدْ وُلِدَ لُوتِرُ فِي بَلَدَةٍ صَغِيرَةٍ تُسَمَّى "إَيْسْلِين" فِي شَرْقِي أَلْمَانِيَا. لَكِنْ مِنَ الْمَفَارِقَاتِ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ أَنَّ عَائِلَتَهُ رَحَلَتْ عَنِ إَيْسْلِينِ عَقِبَ وِلَادَتِهِ، وَقَضَى مُعْظَمَ حَيَاتِهِ خَارِجَ بَلَدَةٍ مَسْقُطِ رَأْسِهِ، لَكِنَّهَا هِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي تُؤَنَّى فِيهَا عَامَ ١٥٤٦.

لَكِنْ حِينَ نَتَأَمَّلُ شَخْصَ لُوتِرِ وَنَنْظُرُ فِي تَارِيخِهِ، فَإِنَّ أَحَدَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُلَاحِظُهَا هُوَ أَنَّهُ كَانَ فِي خِصَمِّ أَرْمَةِ كُلِّ خَمْسِ سَنَوَاتٍ، عَلَى الْأَقْلِ لِبُرْهَةِ بَدَأَ مِنْ سَنَةِ ١٥٠٥. كَانَ لُوتِرُ ابْنًا لِرَجُلٍ يَمْتَلِكُ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَنَاجِمِ وَالْمَسَابِكِ فِي الْمَقَاطِعَةِ، يُدْعَى هَانِرُ لُوتِرِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَاحِشَ الثَّرَاءِ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ بِالتَّأَكِيدِ فَقِيرًا. إِذْ كَانَ يُحْطَى بِثُرُوقِ كَافِيَةٍ لِإِرْسَالِ لُوتِرِ إِلَى مَدَارِسَ جَيِّدَةٍ. وَتَمَثَّلَ حُلْمُهُ فِي أَنْ يَصِيرَ نَجْلُهُ مُحَامِيًا، فَلِذَا التَّحَقَّقَ الْفَتَى لُوتِرُ بِجَامِعَةِ إِرْفُورْتِ حَيْثُ دَرَسَ الْقَانُونَ. وَفِي أَثْنَاءِ دِرَاسَتِهِ لِلْقَانُونَ، اِكْتَسَبَ فِعْلًا سُمْعَةً لِكُونِهِ فَقِيهًا فَذَا وَطَالِبًا لَامِعًا فِي الْقَانُونَ يَنْتَظِرُهُ مُسْتَقْبَلُ رَائِعٍ، مَا أَسْرَّ وَالِدَهُ كَثِيرًا.

ثُمَّ فِي سَنَةِ ١٥٠٥، بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى بَلَدَتِهِ لِيَفْتَقِدَ وَالِدَيْهِ وَفِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ إِلَى جَامِعَةِ إِرْفُورْتِ وَبِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ، ضَرَبَتْ عَاصِفَةٌ رَعْدِيَّةٌ عَنيفَةٌ وَنَزَلَتْ صَاعِقَةٌ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَانِ لُوتِرِ، فَارْتَعَبَ صَارِحًا: "أَنْقِذْنِي يَا قَدِيسَةُ حَنَّةُ!" أَوْ "سَاعِدِينِي يَا قَدِيسَةُ حَنَّةُ! فَاصْبِحِ رَاهِبًا". كَانَتْ الْقَدِيسَةُ حَنَّةُ، الَّتِي هِيَ وَالِدَةُ الْعَدْرَاءِ مَرِيَمَ وَالِدَةِ الرَّبِّ يَسُوعَ، ضَمَّنَ مَجْمُوعَةَ قَدِيسَاتِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، وَشَفِيعَةَ الْعَامِلِينَ فِي الْمَنَاجِمِ، وَكُلٌّ مِنْ يَعْمَلُ فِي أَعْمَالٍ خَطِيرَةٍ مِثْلَ التَّعْدِينِ. فَلِهَذَا تَعَهَّدَ لُوتِرُ، الَّذِي كَانَ مَرْعُوبًا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَنَّهُ إِذَا نَجَا مِنْ هَذِهِ الصَّاعِقَةِ سَيُصْبِحُ رَاهِبًا؟ فَذَهَبَ إِلَى الْجَامِعَةِ

وَحَمَلَ مُتَعَلِّقَاتِهِ الشَّخْصِيَّةَ وَجَمَعَ أَصْدِقَاءَهُ لِوُدِّيَعِهِ، وَتَرَجَّلُوا مَعَهُ حَتَّى أَحَدِ أَدِيرَةِ النِّظَامِ الأُوغُسْطِينِيِّ فِي إِرْفُورْتِ وَوَدَّعُوهُ هُنَاكَ، وَالتَّفَّ هُوَ مُتَّجِهَاً إِلَى بَابِ الدَّيْرِ لِيُقَدِّمَ نَفْسَهُ طَالِبًا لِلرَّهْبَانَةِ.

لَا يُمَكِّنُكُمْ اسْتِيعَابُ الإِصْلَاحِ، لَا يُمَكِّنُكُمْ اسْتِيعَابُ دَوْرٍ لَوَثَّرَ فِيهِ دُونَ إِذْرَاكِ الأَزْمَةِ الَّتِي حَاقَتْ بِهِ عَامَ ١٥٠٥ وَدَفَعَتْهُ لِيَصِيرَ رَاهِبًا مِمَّا صَدَمَ وَالِدَهُ وَأَقْلَقَهُ كَثِيرًا. كَانَ هَانزُ المُسْنُ غَاضِبًا مِنْ ابْنِهِ لِقَرَارِهِ بِالأُنْحِرَاطِ فِي الخِدْمَةِ الدِّينِيَّةِ رَاهِبًا وَكَاهِنًا فَجَاءَهُ وَبِدُونِ مُقَدِّمَاتٍ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَصِيرَ مُحَامِيًا بَارِزًا. حَسَنًا، عَلَى أَيِّ حَالٍ، عِنْدَمَا التَّحَقَّقَ لَوَثَّرُ بِالدَّيْرِ وَاجْتَاَزَ بِمُخْتَلِفِ المَرَاكِحِ لِيُرْتَسِمَ، مَا تَمَّ عَامَ ١٥٠٧، كَانَ يُعَدُّ أَحَدَ أَكْثَرِ فِتْرَاتِ حَيَاتِهِ أَهْمِيَّةً إِذْ بِدُونِهِ لَنْ نَفْهَمَ العَقِيدَةَ أَبَدًا.

كَمَا أَنَّ رَسَامَةَ لَوَثَّرَ فِي إِرْفُورْتِ حَمَلَتْ مُفَارَقَةَ بَارَرَّةَ. فَقَبْلَ قَرْنٍ، أَتَاهُمْ وَاعِظَ نُشِيكِيَّ يُدْعَى جُونُ هَسُّ أَوْ هَسُّ، كَمَا هُوَ الحَالُ، بِالْهَرَطَقَةِ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ عِصْمَةَ الكَنِيسَةِ وَرَفَعَ الكِتَابَ المُقَدَّسَ أَعْلَى مِنْ شَرَائِعِ الكَنِيسَةِ الكَاتُولِيكِيَّةِ وَمَرَاسِيمِهَا، وَتَمَّ اسْتِجْوَابُهُ فِي مَجْمَعِ كُونِسْتَانْسٍ وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالإِعْدَامِ هُنَاكَ فِي مَجْمَعِ كُونِسْتَانْسٍ. وَقَدْ رَدَّ جُونُ هَسُّ عَلَى الأُسْقُفِ الَّذِي أَمَرَ بِإِعْدَامِهِ بِحَرْقِهِ عَلَى العُمُودِ قَائِلًا: "قَدْ تَقَدَّرُ عَلَى قَتْلِ هَذِهِ الإِوْرَةَ، أَوْ عَلَى حَرْقِي إِنْ شِئْتَ، لَكِنْ سَتَأْتِي بَعْدِي بَجَعَةٌ لَنْ تَقْدِرَ عَلَى إِسْكَانِهَا". وَلِلتَّذْكِيرِ، إِنَّ اسْمَ جُونِ هَسِّ يَعْنِي "إِوْرَةٌ"، فَلِذَا قَالَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِ هَذِهِ الإِوْرَةَ لَكِنْ سَتَأْتِي بَجَعَةٌ لَنْ تَقْدِرَ عَلَى إِسْكَانِهَا.

ذَاتَ مَرَّةٍ، كُنْتُ فِي بَرَاكِ عَاصِمَةِ جُمهُورِيَّةِ النُّشِيكِ وَلَمْ أَصَدِّقِ المُفَارَقَةَ بِوُجُودِ كَنِيسَتَيْنِ كَاتُولِيكِيَّتَيْنِ فِي السَّاحَةِ المَرْكَزِيَّةِ، وَفِي وَسْطِ هَذِهِ السَّاحَةِ يَقِفُ تِمْتَالُ لِيُونِ هَسِّ، فِي أَثْنَاءِ مَا كَانَ مُرْشِدُنَا يَرُوي لَنَا قِصَّةَ إِعْدَامِهِ. قَالَ لَنَا المُرْشِدُ: هَذَا هُوَ المَكَانُ، مُشِيرًا إِلَى مَكَانٍ بَعِينِهِ، هَذَا هُوَ المَكَانُ حَيْثُ أُحْرِقَ جُونُ هَسِّ. وَكَانَتِ اللُّغَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ لِهَذَا المُرْشِدِ بِهَا قُصُورٌ. لَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَوْضَحَ قَائِلًا: لَقَدْ أُعْدِمَ هَسُّ حَرْقًا عَلَى العُمُودِ.

لأَحِقًا سَأَخْتَلِقُ جُزْءًا وَأُضِيفُهُ إِلَى القِصَّةِ، فَهُوَ جُزْءٌ غَيْرٌ حَقِيقِيٍّ بِالمَرَّةِ. لَكِنَّ مَا حَدَّثَ بَعْدَ قَرْنٍ مِنْ تِلْكَ الحَادِثَةِ، أَنَّهُ عِنْدَمَا رُسِمَ لَوَثَّرُ هُنَاكَ فِي دَيْرِ إِرْفُورْتِ، كَانَ بِالطَّبْعِ سَاجِدًا عِنْدَ قَاعِدَةِ المَذْبُوحِ وَاتَّخَذَ جَسَدَهُ وَضَعِيَّةَ الصَّلِيبِ، وَهَكَذَا رُسِمَ كَاهِنًا. مَنْ كَانَ مَدْفُونًا أَسْفَلَ ذَلِكَ المَذْبُوحِ فِي إِرْفُورْتِ كَانَ الأُسْقُفُ الَّذِي حَكَمَ عَلَى جُونِ هَسِّ بِالإِعْدَامِ حَرْقًا عَلَى العُمُودِ. أَمَّا الجُزْءُ الَّذِي سَأَخْتَلِقُهُ لِأُضِيفُهُ إِلَى قِصَّةِ قَوْلِ هَسِّ هُوَ: "تَقْدِرُ أَنْ تَقْتُلَ هَذِهِ الإِوْرَةَ، لَكِنْ سَتَأْتِي بَعْدِي بَجَعَةٌ لَنْ تَقْدِرَ عَلَى إِسْكَانِهَا"، سَيَرُدُّ الأُسْقُفُ عَلَيْهِ: "عَلَى جُثَّتِي" لِأَنَّهُ رُسِمَ فِعْلًا عَلَى جُثَّةِ ذَلِكَ الأُسْقُفِ. فِي الذِّكْرَى الحُمِسْمَانَةِ لِإِمِيلَادِ لَوَثَّرِ، رُيِّنَتْ أَلْمَانِيَا بِمُلَصَقَاتٍ عِمْلَاقَةٍ عَلَيْهَا صُورَةُ لَوَثَّرِ وَخَلْفَهُ بَجَعَةٌ، لِأَنَّهُ كَانَ يُعَدُّ البَجَعَةَ الَّتِي تَنَبَّأَ عَنْهَا جُونُ هَسِّ.

بِالطَّبْعِ كَانَتْ السَّنَوَاتُ الَّتِي قَضَاهَا لُوَثْرُ فِي الدَّيْرِ سَنَوَاتٍ مِنَ الاضْطِرَابِ وَالصَّغْطِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ. وَبِشِيرِ أَدَقُّ تَارِيخٍ لَدَيْنَا إِلَى أَنَّهُ كَانَ رَاهِبًا مُلْتَزِمًا، وَكَانَ حَسَنَ التَّصَرُّفِ وَمُنْتَبِجًا لِلْعَايَةِ فِي الدَّيْرِ، بِاسْتِثْنَاءِ مُشْكَلَةٍ وَاحِدَةٍ. كَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يُقَدِّمَ الرُّهْبَانَ اعْتِرَافَاتٍ يَوْمِيَّةً لِأَبَاءِ اعْتِرَافِهِمْ. بَعْدَ أَنْ يَقْضُوا أَوْقَاتًا فِي الصَّلَاةِ الْحَارَّةِ كُلِّ يَوْمٍ، يُخَصِّصُونَ وَقْتًا لِلاعْتِرَافِ وَلِسَرْدِ خَطَايَا أَمْسٍ، فَكَانَ يَتَقَدَّمُ مُعْظَمُ الرُّهْبَانِ قَائِلِينَ: "لَقَدْ أَخْطَأْتُ يَا أَبِي". فَيَعْتَرِفُونَ مَا إِذَا كَانُوا قَدْ اشْتَهَوْا الخُبْزَ الإِضَافِي الَّذِي لِلأَخِ جُونَاثَانَ عَلَى عِشَاءِ البَارِحَةِ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا القَبِيلِ. وَفِي خَمْسِ دَقَائِقَ يَتَأَلَّى الرَّاهِبُ العُفْرَانَ وَيَخْرُجُ عَائِدًا إِلَى عَمَلِهِ. بَيْنَمَا لُوَثْرُ كَانَ يَدْخُلُ وَيَمُكِّثُ عِشْرِينَ دَقِيقَةً، نِصْفَ سَاعَةٍ، سَاعَةً كَامِلَةً، وَأحيانًا أَكْثَرَ مِنْ سَاعَتَيْنِ مُعْتَرِفًا بِخَطَايَاهُ الَّتِي ارْتَكَبَهَا فِي الأَرْبَعَةِ وَالْعِشْرِينَ سَاعَةً الأَخِيرَةِ. فَحِينَ تَتَأَمَّلُونَ فِي الأَمْرِ، أَنْتُمْ فِي دَيْرٍ، فَكَمْ يَبْلُغُ عَدَدُ سَقَطَاتِكُمْ فِي الأَرْبَعَةِ وَالْعِشْرِينَ سَاعَةً؟ لَكِنَّ لُوَثْرَ كَانَ يُفَكِّرُ فِي كُلِّ هَذِهِ الأُمُورِ وَالطَّرِيقِ الَّتِي خَالَفَ بِهَا شَرِيعَةَ اللَّهِ فِي الأَرْبَعَةِ وَالْعِشْرِينَ سَاعَةً المَاضِيَةِ، ثُمَّ يَحْصُلُ فِي النِّهَايَةِ عَلَى العُفْرَانِ، ثُمَّ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إِلَى قَلَائِيَتِهِ، كَانَ يَفْتَكِرُ خَطِيئَةً نَسِيَ الاعْتِرَافَ بِهَا، فَيَقْفِدُ السَّلَامَ الَّذِي نَالَهُ مِنَ العُفْرَانِ.

فَقَدْ دَقَّقَ بَعْضُ المُؤرِّخِينَ فِي سُلُوكِ لُوَثْرٍ وَاعْتَبَرُوا أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مَجْنُونًا، كَانَ مَجْنُونًا بِالتَّفَكِيرِ وَلَدَيْهِ هَذَا النُّوعُ مِنَ عُقْدَةِ الذَّنْبِ إِذْ كَانَ يَقْضِي الكَثِيرَ مِنَ الوَقْتِ فِي الاعْتِرَافِ بِخَطَايَاهُ كُلِّ يَوْمٍ. فَحَسْبُ نَعْلَمُ أَنَّهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ كَانَ لُوَثْرُ رَجُلًا يُورِّقُهُ ذَنْبُهُ. لَكِنَّ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، عَلَيكُمْ أَنْ تُدْرِكُوا أَنَّهُ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِعَقْلِيَّةِ رَجُلٍ قَانُونٍ، فَدَرَسَ بِعِنَايَةٍ وَتَدْقِيقٍ شَدِيدٍ نَامُوسَ اللَّهِ، ثُمَّ قَاسَ نَفْسَهُ أَمَامَ هَذَا النَامُوسِ، فَأَدْرَكَ أَنَّهُ كَانَ يُخْطِئُ ضِدَّ نَامُوسِ اللَّهِ كُلِّ دَقِيقَةٍ. وَهَذَا مَا كَانَ قَدْ فَكَّرَ لُوَثْرُ فِيهِ. رُبَّمَا قَالَ: "الْكِتَابُ المُقَدَّسُ يَقُولُ إِنَّ الوَصِيَّةَ العُظْمَى هِيَ أَنْ "تُحِبَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ" حَقًّا، لَا يَحْفَظُ أَحَدٌ ذَلِكَ، فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُطَبِّقَ هَذَا؟ فِي الوَاقِعِ، رُبَّمَا فَكَّرَ لُوَثْرُ وَقَالَ: "إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الوَصِيَّةُ العُظْمَى، فَإِنَّ كَسْرَ هَذِهِ الوَصِيَّةِ العُظْمَى لَا بُدَّ وَأَنَّهُ ذَنْبٌ عَظِيمٌ".

لِذَا رُبَّمَا ذَهَبَ لُوَثْرُ إِلَى قَلَائِيَتِهِ وَجَلَدَ نَفْسَهُ حَرْفِيًّا، وَرُبَّمَا قَضَى فتراتٍ مِنَ الصِّيَامِ الَّذِي رُبَّمَا كَانَ قَاسِيًا، مُحَاوَلًا إِيجَادَ السَّلَامِ لِسَبَبِ الذَّنْبِ الَّذِي أَرْقَهُ مِنْ كَسْرِهِ لِنامُوسِ اللَّهِ. فَأَنَا لَمْ أَحْفَظِ الوَصِيَّةَ العُظْمَى مُنْذُ أَنْ عَادَرْتُ فِرَاشِي هَذَا الصَّبَاحِ. فَأَنَا لَمْ أُحِبَّ الرَّبَّ إِلَهِي مِنْ كُلِّ قَلْبِي أَوْ مِنْ كُلِّ فِكْرِي أَوْ مِنْ كُلِّ قُدْرَتِي أَوْ مِنْ كُلِّ نَفْسِي يَوْمًا وَاحِدًا فِي حَيَاتِي بِرُمَّتِهَا. لَكِنَّ أَيْضًا لَمْ يَحْفَظْهَا أَحَدٌ غَيْرِي، فَلِذَا أَنَا لَسْتُ بِعَاضِبٍ بِسَبَبِ هَذَا الأَمْرِ. لَكِنَّ لُوَثْرَ غَضِبَ بِسَبَبِ هَذَا، حَتَّى إِنَّ أَبَ اعْتِرَافِهِ أُصِيبَ بِالإِخْبَاطِ مِنْهُ وَقَالَ لَهُ: "أَيُّهَا الرَّاهِبُ مَارْتِنُ، إِذَا كُنْتُ سَتَحْضُرُ إِلَى الاعْتِرَافِ، تَعَالَ بِخَطِيئَةٍ جَسِيمَةٍ، تَعَالَ بِجَرِيمَةٍ شَنْعَاءِ ارْتَكَبْتَهَا ضِدَّ اللَّهِ بَدَلًا مِنْ هَذِهِ الزَّلَّاتِ الَّتِي لَا تَكْفُفُ عَنِ الاعْتِرَافِ بِهَا دَوْمًا". لَكِنَّ مَرَّةً أُخْرَى، لَفَهُمْ لُوَثْرَ عَلَيكُمْ إِدْرَاكَ هَذَا الحِمْلِ الثَقِيلِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي تَبِعَهُ فِي الدَّيْرِ. رُبَّمَا قَالَ: "أَتَسْأَلُنِي: هَلْ أُحِبُّ اللَّهَ؟ أُحِبُّ اللَّهَ؟" أَنَا أحيانًا: أَكْرَهُ اللَّهَ. إِذْ أَرَى المَسِيحَ بِسَيْفٍ آتِيًا إِلَيَّ لِيُدِينَنِي. آمَنَ كَثِيرُونَ فِي

الكنيسة أن تلبية الدعوة للخدمة الدينية تُعد امتيازًا إضافيًا للذهاب إلى السماء ظانين أن الرهبنة والتكرس لهذه الدعوة الدينية ستساعدهم على الذهاب إلى السماء، لكنهم لم ينل أي سلام من ذلك.

أما الأزمة الثانية وقعت سنة ١٥١٠، بعد خمس سنوات. فرح لوثر فرحًا مُنقطع النظير عندما أعلمه رئيس الدير باختياره مع راهب آخر ليسافرا إلى روما بالإنابة عن الدير لإنجاز بعض أعمال الدير، أي إن هذين الراهبين اختيرا لتمثيل الدير في إزفورت. فقطعا الرحلة على أرجلهم من ألمانيا إلى روما، وكان لوثر متحمسًا للغاية لأن من أهم الشعائر التي كان يمكن القيام بها لتبيل الخلاص هي تأدية الحج. وكان يتمثل الحرمان العظيمان في مدينتي أورشليم وروما. فحينها كان لوثر يستعد للذهاب بشحمه ولحمه إلى المدينة المقدسة، وكان ذلك يتطلب عددًا ضخمًا من صكوك العفران وهو المفهوم الذي سنستكشفه لاحقًا. وبما أنه كان لا يزال حيًا وليس في المظهر، فلم يستطع الاستفادة لنفسه من صكوك العفران التي قد نالها من هذا الحج إلى روما، إذ قرّر تكريس هذا الحج، هذه الرحلة إلى روما، لأجداده.

وأخيرًا، بعد شهر من الرحلة، وصل هو ورفيقه إلى روما، لكنهما أضحت تجربة محيية للأمال عميقة وعفوية. فأول ما أغضبته تمثل في حياة الفجور للكهنة في روما، الذين كانوا يصاحبون العاهرين والعاهرات جهرا، وفي أن الفجور الأخلاقي والجنسي للكهنة الكاثوليك في المدينة لم يكن خفية في المنادع، بل كان علانية، كان الأمر عريضة جسيمة في نظر لوثر. ثانيًا، بيع الكهنة خدماتهم لإقامة القداس، إذ كانوا يحصلون على الكثير من المال لإقامة القداس ولمضاعفة مكاسبهم، كانوا يتسرعون في إقامته، مظهرين عدم احترام لمظاهر القداس، كانوا ببساطة يقيمون القداسات من أجل المنفعة الشخصية. شاهد لوثر هذا وانهار، لأن كان في محييته قبل الذهاب إلى هناك، وقال هذا، "إنها مكة بحسب المنظور المسيحي". حيث يقطنها الأقدس من بين البشر.

في ذلك الوقت، يفترض أن البابا كان يوليوس الثاني، الذي كان، بحسب مؤرخ كاثوليكي، أحد أكثر البطارقة فسادًا. كان أحد الباباوات من أسرة بابوية تُعرف باسم آل بورجيا، وكان يُحفظ لبناء كاتدرائية جديدة تضم عظام القديسين بطرُس وبولس. لذلك شرع في مشروع البناء الضخم هذا لبناء كاتدرائية جديدة، لكن المال نفذ منه ولم يبق سوى الأساسات، وبعد ذلك استعمرته الحشائش. هجر مشروع البناء حتى جلوس خليفته ليو العاشر على كرسي الباباوية، وسرى ذلك بعد قليل.

أما الحادثة الثالثة والقاضية على ما كان في محيية لوثر عندما ذهب إلى روما، تمثلت في زيارته إلى سكالاً ساكر (Scala Sacra) الدرج المقدس الذي كان ضمن كنيسة لا تيران، التي كانت الكاتدرائية السابقة للبابا، ومقره الباباوي. على أي حال، صممت كنيسة لا تيران هذه المجموعة من الدرجات، لست متأكدًا، تسعة وعشرين درجة أو

أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ. وَكَانَ هَذَا الدَّرَجُ جُزْءًا مِنْ قَاعَةِ الْمَحَاكِمَةِ حَيْثُ جَلَسَ بِيلاطُسُ البُنْطِيُّ لِسَمَاعِ قَضِيَّةِ الرَّبِّ يَسُوعَ، وَمِنْ الْمُفْتَرَضِ أَنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ صَعِدَ هَذَا الدَّرَجَ وَنَزَلَهُ فِي أَثْنَاءِ مُحَاكَمَتِهِ. وَهَكَذَا، فَإِنَّ هَذَا الدَّرَجَ الْمُقَدَّسَ فِي أُورُشَلِيمَ تَمَّ نَقْلُهُ حَيْثُ أُعِيدَ بِنَاؤُهُ أَمَامَ كَنِيسَةِ لا تِيرَان. فَصَارَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَوْقِعَ الْمَرْكَزِيَّ لِلزِّيَارَةِ مِنْ قِبَلِ الْحُجَّاجِ إِلَى رُومًا إِذْ تَمَثَّلَتِ الْفِكْرَةُ فِي أَنَّهُ إِذَا صَعِدْتَ هَذَا الدَّرَجَ عَلَى رُكْبَتَيْكَ وَفِي كُلِّ دَرَجَةٍ تُرَدِّدُ تَسْبِيحَتِي "أَبَانَا الَّذِي" وَ"السَّلَامَ عَلَيْكَ يَا مَرِيَمَ"، ثُمَّ إِلَى الدَّرَجَةِ التَّالِيَةِ عَلَى رُكْبَتَيْكَ وَتَتْلُو "السَّلَامَ عَلَيْكَ يَا مَرِيَمَ" وَ"أَبَانَا الَّذِي"، وَفُتِمَتْ بِذَلِكَ فِي كُلِّ دَرَجَةٍ حَتَّى الْقِمَّةِ، سَتَنَالُ قَدْرًا مِنْ صُكُوكِ الْغُفْرَانِ يُمَكِّنُكَ مَنْحُهُ لِعَائِلَتِكَ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْمُظْهَرِ أَوْ لِتَقْصِيرِ وَقْتِهِمْ فِي الْمُظْهَرِ.

فَقَدْ قَامَ لُوثرُ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ إِلَى رُومًا لِيَصْعَدَ الدَّرَجَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَلِيُؤَدِّيَ هَذَا الطَّفْسَ مِنْ أَجْلِ أَجْدَادِهِ الرَّاحِلِينَ. فَإِنَّ كَانَ أَيُّ مِنْكُمْ قَدْ زَارَ رُومًا، يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الدَّرَجَ الْمُقَدَّسَ لَا يَزَالُ مَوْجُودًا ضِمْنَ كَنِيسَةِ لا تِيرَان. أَنَا لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ مَدَى عَرْضِ هَذَا الدَّرَجِ، أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ مِئَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنْتِيْمِترًا إِلَى ثَلَاثَةِ أمتارٍ. دَرَجٌ لَيْسَ بِصَيِّقٍ. بَلْ دَرَجٌ حَجْرِيٌّ عَرِيضٌ. فَنِي زِيَارَتِي الْأُولَى إِلَى رُومًا وَإِلَى كَنِيسَةِ لا تِيرَان، فِي الْوَاقِعِ لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أُنْسَى مَا قَالَهُ مُرْشِدُنَا السِّيَاحِيُّ "مَا أَكْثَرَ شَيْءٍ تُرِيدُ أَنْ تَرَاهُ أَوَّلًا؟" وَتَوَقَّعْ أَنْ أَرُدَّ بِأَنْ أَرَى الْفَاتِيكَانَ أَوْ كَنِيسَةَ الْقِدِّيسِ بَطْرُسَ أَوْ الْكُولِيسْيُومَ وَهُوَ مَدْرَجٌ رُومَانِيٌّ عِمْلَاقٌ يَقَعُ فِي وَسَطِ مَدِينَةِ رُومًا. لَكِنِّي قُلْتُ: "أُرِيدُ رُؤْيَةَ الدَّرَجِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي فِي كَنِيسَةِ لا تِيرَان"، فَأَخِذَ مِنْدَهِيْشًا. فَقَالَ لَمْ يَحْدُثْ أَنْ طَلَبَ مِنِّي سَائِحٌ هَذَا قَبْلًا. فَقُلْتُ: "حَسَنًا، هَذَا مَا أُرِيدُ رُؤْيَتَهُ". فَأَنَا كُنْتُ فِي حَيِّي الْخَاصِّ، حَاجٌّ لُوثرِي، لَكِنِّي فِي النِّهَايَةِ وَصَلْتُ إِلَى الْمَوْقِعِ وَأَرَدْتُ الصُّعُودَ عَلَى الدَّرَجِ وَالنَّظَرَ، لَكِنِّي لَمْ اسْتَطِعْ حَتَّى الْاقْتِرَابَ مِنْهُ. فَكُلُّ سَنْتِيْمِترٍ مُرَبِّعٍ مِنْ هَذَا الدَّرَجِ حَمَلٌ رُكْبَتِي مِمَّنْ يَحْمِلُونَ مَسَاجِحَهُمْ وَيُودُّونَ طُفُوسَهُمْ. وَعَلَى الْحَائِطِ بِجِوَارِ الدَّرَجِ، رُفِعَتْ لَوْحَةٌ تُعْلِنُ عَدَدَ صُكُوكِ الْغُفْرَانِ الَّتِي سَيَنَالُهَا كُلُّ مَنْ سَيَصْعَدُ هَذَا الدَّرَجِ.

نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ وَالْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ. لَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَأَوْلِيكَ مَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ قَدْ انْتَهَى، كُلُّ مَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ هُوَ الذَّهَابُ إِلَى الدَّرَجِ الْمُقَدَّسِ وَسَتَرَى أَنَّ هَذِهِ الْمُمَارَسَةَ لَا تَزَالُ حَيَّةً وَمُتَفَشِّئَةً. أَمَّا لُوثرُ، عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى هُنَاكَ، صَعِدَ الدَّرَجَ عَلَى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى الْقِمَّةِ وَقَفَ وَقَالَ فِي سِرِّهِ: "مَنْ يَدْرِي مَا إِذَا كَانَ هَذَا صَحِيحًا". وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَرْزَمَةٌ مَاهِيَّةُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَعْتَنِقُهُ. لَقَدْ اسْتَوْفَى كُلَّ مَا طَلَبَتْ الْكَنِيسَةُ مِنَ الرُّهْبَانِ وَالْكَهَنَةِ فِعْلَهُ، لَكِنَّهُ مَا زَالَ لَا يَشْعُرُ بِأَيِّ سَلَامٍ أَوْ رَجَاءٍ أَوْ فِدَاءٍ.

وَلِلْقِصَّةِ بَقِيَّةً، لَكِنَّا سَتَنَاقِلُهَا فِي الْمَحَاضِرَةِ التَّالِيَةِ.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".